1992 12 26 - 0001a - ٣٤

في لبنان عشرون الف مفقود.
في لبنان خطف نحو الفي انسان في اليومين اللذين اعقبا الاجتياح الاسرائيلي لبيروت.
في لبنان الآن الامهات والزوجات والاولاد ينتظرون.
في لبنان لا احد يهتم، لا احد يسأل.
امهات المخطوفين وزوجاتهم الذين كانوا يحتلون الشوارع بثيابهم السوداء، يدخلون اليوم في ما يشبه الصمت.
لماذا لا يعلن مصير المخطوفين؟
لماذا لا تتحمل الدولة مسؤولياتها؟
لماذا لا يزيل الخاطفون الاقنعة السوداء عن وجوههم، ويسمحوا للمخطوفين بأن يزيلوا الاكياس التي تغطي رؤوسهم ومصائرهم.
في الميلاد، ذهبنا الى واحدة من آلاف الامهات، الى اوديت سالم واستمعنا الى حكايتها. ورأينا العيد وهو يتحول الى ليل في عيون النساء.
ونحن نسأل نجلس الى جانب اوديت ونسأل، ونعلم ان احداً لن يجاوب.

الياس خوري

ليل المخطوفين

اخبرتني اوديت

ماذا تقول اوديت بعد سبع سنوات من الانتظار؟

كان ذلك يوم الثلثاء ١٧ ايلول ١٩٨٥. ريشار (مواليد ١٩٦٢) وكريستين (مواليد ١٩٦٥) لم يعودا الى البيت الكائن في ساقية الجنزير. انتظرت اوديت اديب زوجة البر سالم ابنها وابنتها على الغداء في ذلك اليوم، ولم يعودا. ومنذ الرابعة من بعد ظهر ١٧ ايلول ١٩٨٥، بدأت رحلة البحث والخوف والانتظار واليأس والامل.

قالت اوديت انها لا تريد ان يمر عيد الميلاد فوق ليل المخطوفين، دون ان تخبر الحكاية، وتوجه نداء وتروي.

واوديت تنتظر.

هي وامهات وزوجات آلاف المخطوفين، ما زالوا ينتظرون.

"الحرب انتهت"، قالت اوديت. "انتهت الحرب وحكايتنا لم تنته، كيف تقولون ان الحرب انتهت، كيف تقولون، كيف تعيشون، كيف السلام، واولادي لا يزالون حيث لا اعرف، حيث لا احد يريد ان يقول لي، حيث الليل".

قالت اوديت انها تخاف من الليل.

قالت ان الليل برد، "ليل بيروت يزحف على الجسد ويسكنه، وانا وحدي. وحدي في الليل ومع البرد، ولا احد".

قالت لا احد، وسكتت.

في الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم، بدأت رحلة البحث، انتظرت اوديت ساعتين ثم هرعت الى المستشفيات، وانتهت رحلة البحث الاولى في المخفر، قالوا لها انهم سيعممون اوصاف ابنها وابنتها على المخافر والمليشيات. وعادت الى البيت. كان البيت فارغاً وجلست في الصالون تنتظر، لم تدخل غرفتها كي تنام. جلست في الصالون وكانت كل خمس دقائق تخرج الى الشرفة كي ترى، ولم ترَ شيئاً. ويومها جاء البرد. لم يكن ايلول بارداً في تلك السنة. كان صيف بيروت والرطوبة، في الواحدة صباحاً عندما عادت اوديت من الشرفة لتجلس في الصالون، شعرت بذلك البرد الذي دخل عظامها، وما يزال هناك، اغلقت باب الشرفة واشعلت المدفئة، وبقيت ترتجف.

كانت الثالثة صباحاً، وكل شيء مطفأ في بيروت، ما عدا شمعة اوديت ومدفئتها، في تلك الساعة ذهبت الى غرفة نوم اولادها، وجلبت البومات الصور، فتحت كل الالبومات، ونامت بين الصور.

"هكذا انام" قالت.

"كي انام، يجب ان افتح البومات كل الصور، صور الطفولة الاولى، وصور اليوم، وصور الامس، لم اعد اعرف ما هو عمر اولادي، مرات اتكلم معهم وكأنهم اطفال واتذكر، كان ريشار هو رجل البيت. مات ابوه عام ١٩٨٢، وكان ابني في العشرين ورأيته كيف صار رجلاً ارى رجلي مثل طفل صغير في الصورة، واكلمه كما كنت اكلمه، وهو يجاوب كما كان يجاوب".

قالت اوديت ان الصور قد تتحول الى مأساة. واخبرتني عن امرأة اسمها فاطمة، قالت انهم في لجنة امالي المخطوفين (تتألف اللجنة من اوديت سالم ووداد حلواني والمحامي سنان براج) كانوا يعدون استمارات عن المخطوفين ويطلبون من الامهات تعبئتها وارفاقها صورة فوتوغرافية. قالت ان فاطمة جاءتها الى البيت وهي تكاد تموت من الحزن. "كيف اصفها لك، تلبس هستاناً طويلاً وتغطي رأسها بمنديل اسود، جاءت وطلبت استمارتها، قالت انها لا تملك سوى صورة صغيرة واحدة لزوجها".

"انت تعرفين"، قالت فاطمة لاوديت.

"التهجير، وتل الزعتر والانتقال من مكان الى مكان، وانا لم اعد املك سوى صورة واحدة له، صورة صغيرة احرص عليها اكثر من حرصي على روحي، واليوم ضاعت الصورة، لا اعلم، انا اعرف، رفضت ان اضع صورته على الاستمارة، لكن ربما، ربما كانت مع الاستمارة".

جلست فاطمة على الارض وصارت تبكي من كتفيها.

قالت اوديت انها المرة الاولى في حياتها ترى البكاء في الكتفين ولا تسقط الدموع من العينين.

اوديت سالم تروي.

"قمت وبحثت بين الاستمارات، ولم اجد الصورة. المرأة لم تعطنا صورة زوجها، قلت لها ان تطوّل بالها وتستهدي بالله، صارت تتمتم آيات قرآنية وتبكي، وانا افتش مع علمي انني لن اجد شيئاً".

"هل تعرف ماذا فعلت".

"قامت وطلبت مني صورة لريشار ابني. صارت ترجوني ان اعطيها صورة، وانا لا اعرف ماذا اجاوب. طبعاً اعطيتها صورة، وذهبت. لم التقِ بها بعد ذلك. كانت فاطمة لا تغيب عن اعتصاماتنا، ثم بعد ان اضاعت صورة زوجها واخذت صورة ابني ريشار اختفت".

فماذا فعلت؟ اسألني ماذا لم افعل".

"فعلت كل شيء، ذهبت الى الجميع، الزعماء والقبضايات، الجباه والابطال، المشايخ والمطارنة والبطاركة، ذهبت وحكيت ورجوت وبكيت وتشرشحت وصرخت".

"قلت لهم انني لا اريد شيئاً من الدنيا، اريد اولادي. اراهم ثم اموت. قلت لهم ان يأخذوني بدلاً منهم، ان يفعلوا بي ما يريدون، اراهم فقط ثم اقبل بكل شيء".

"هل تعتقد ان احداً اهتم بي؟".

"كلهم قالوا انهم اهتموا ويحتون ويريدون مساعدتي، لكن لا احد يهتم. يستمعون الي يتأثرون قليلاً ثم يذهبون الى بيوتهم، وانا اين اذهب، بيتي ليس بيتي، سريري ليس سريري، ثيابي لم تعد ثيابي، انا وحيدة وحيدة واخاف من الليل".

قالت اوديت انهم شكلوا لجنة لأمالي المخطوفين.

"اعتصمنا واصدرنا البيانات، حملنا الياقطات ولبسنا الثياب السوداء. صرنا اشباح هذه المدينة، مئات النساء، بالثياب السوداء والصور والوقوف طويلاً امام مجلس النواب والقصر الحكومي ودار الافتاء وفي كل مكان.

لكن لا احد يريد ان يستمع الى حكايتنا".

"لماذا؟" تسأل اوديت.

"ما هي الحكمة في ابقاء حكايتنا غامضة وبلا جواب؟

والخاطفون ألم يتعبوا من دموعنا، الا يخافون من صلواتنا ودعائنا، الا يخافون على اولادهم، أليس عندهم امهات؟

والدولة. هذه الدولة وهذه المواكب والحراسات والزمامير، الا يشعرون انهم مسؤولون عن مصير ٢٠ الف لبناني فقدوا خلال الحرب.

لماذا لا يقولون؟

افرجوا عن الاحياء واعلنوا وفاة الموتى، ولتخلص هذه الحكاية"

قالت اوديت انها تعلم بأن ولديها احياء.

"الأم تعرف" قالت لي. "منذ شهر رأيت امي في المنام، امي ماتت من زمان، لكنها جاءت لتزور قلبي، قالت لي امي ان لا اخاف، رأيتها وكانت تلبس ثياباً بيضاء وهالة من الضوء تحيط بها، اعتقدت انها مريم العذراء، لكنني عرفتها منذ التفاتتها، قالت لي ان لا اخاف لأن ريشار وكريستين سيعودان الي. انا اعرف وامي تعرف، انتم لا تعرفون ماذا يعيش في احشاء الأم. صحيح

1992/12/26-0001 b.z

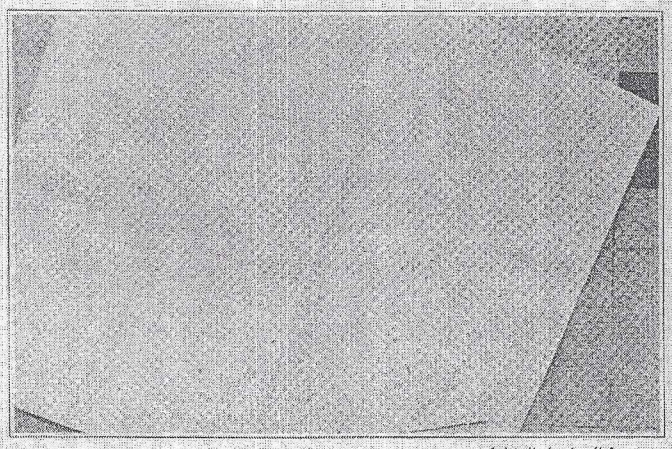

لوائح باسماء المخطوفين.

ليل المخطوفين

ان الولد يخرج من بطن امه وتصبح له حياته ويتمرد على اهله ولا اعرف ماذا، لكن بطن الأم يبقى احشم في بطني واعرف".

"زرت جميع المخطوفين الذين خرجوا".

"آخر مخطوف خرج في الصيف الماضي، ذهبت اليه وزرته، لن اقول لك اسمه، بقي مخطوفاً ست سنوات ونصف، اي مثل اولادي، وخرج، وروى لي انهم هناك يعيشون في ما يشبه السجن، يأكلون بشكل مقبول، لا يسمحون للرجال بحلق ذقونهم والاستحمام الا مرة في الاسبوع.

يا سيدي ماشي الحال.

عذاب تعذبوا وتعذبنا، لكن يكفي.

ماذا يريدون منهم، لماذا لا يضعوا حداً لعذابنا".

قالت اوديت انها تعيش كما اراها.

"يعني كيف"، سألتها.

"يعني افتش واتصل واعتصم وابكي".

وفي البيت؟

قالت عن الصور، ثم قالت عن الثياب.

روت اوديت عن علاقتها بخزانة الثياب "كل يوم افتح الخزانة، اغسل الثياب التي مضى عليها زمن لم تغسل، اكويها وارتبها واعيدها الى مكانها. اعرض بعضها للهواء، انت تعرف الثياب بحاجة الى الهواء والى التنفس. فقط في الستين الاولين، ذهبت واشتريت لهما ثياباً جديدة على العيد. كنت اعتقد انهما سيخرجان في عيد الميلاد، وقلت لا يجوز ان يعيدا دون ان اشتري لهما ثياباً جديدة.

اشتريت الثياب وانتظرت، لم يأتيا. وضعت لهما ثيابهما الجديدة داخل اوراق ملونة مثل هدايا العيد ولم يأتيا. فككت الهدايا ووضعت الثياب الجديدة الى جانب الثياب القديمة في الخزائن. لم اعد اشتري لهما ثياباً جديدة، اعتقد انهما تغيرا قليلاً. انت تعلم سبع سنوات كاملة، ريشار كان عمره ٢٣ سنة، الآن صار عمره ٣٠ وكريستين كان عمرها ٢٠ الآن صار عمرها ٢٧، واجسام تتغير. اعتبر انهما سمنا قليلاً في السجن او الضغط يفقد السجين وزنه في السنوات الاولى ثم حين يتعود يسمن. الرجل الذي رأيته في الصيف كان قد سمن قليلاً، هكذا قالت امه. قالت امه انها لم تصدق عينيها، عرفته فوراً، لكنها انتبهت الى ان وزنه قد زاد.

اذا خرجا، طبعاً سأعرفهما، اعرف انهما لن يتغيرا. انظر الى الصور، هذه كريستين طفلة وهذه كريستين في العشرين، هل تغيرت، لم تتغير، الا ترى معي انها لم تتغير. بقيت ملامحها كما كانت. صوتها تغير، الصوت يتغير، وانا اسمع اصواتهما في الليل. اكون، كيف اصف لك، اكون جالسة هنا في الصالون، والصور معي، فجأة يأتي صوت احدهما، كأنه يأتي من مكان بعيد. اسمع النبرة، لا اسمع كلمات محددة، اسمع نبرة الصوت واعرفه، ما اجمل تلك اللحظات، اجلس وحدي وانتظر ان اسمع النبرة، اشتاق الى الصوت، ويأتي. مرات انتظر اياماً طويلة، ومرات اسمعه كل يوم. لا اعلم لماذا ولا كيف.

اراهما في منامي.

لا احلم بهما دائماً. اعتقد، اعرف وانا متأكدة انني حين احلم بابني وابنتي يكون هناك سبب، حلمت بأبني اربع مرات، واعرف ان الخاطفين نقلوه اربع مرات من مكانه. اراه دائماً بثياب صيفية، ربما لأنهم خطفوه في الصيف، اراه بقميص ازرق وبنطلون رمادي فاتح، واعرفه، اراه يدخل باب البيت، او اراه في الشارع امام البيت، لم اتكلم معه في المنام ولا مرة، اراه واقترب منه اريد ان اقبله، وعندما اضع شفتي على خده استيقظ من النوم، ولا مرة قبلته، اضع شفتي وامهم بتقبيله واستيقظ، جارتنا ام صلاح قالت لي ان هذا خير، لا اقبله يعني خير، ولم تشرح لي اكثر، صرت اخاف ان اراه واقبله، اريد ان اقبله مرة واحدة، ليس في المنام، بل في الحقيقة.

وابنتي رأيتها في المنام مرة واحدة، يا لطيف كيف كان ذلك المنام. رأيتها كانت بين رجال ونساء، الملامح نفسها والشعر نفسه والالتفاتة نفسها، لكن حين اقتربت منها لم تكن كريستين، كان وجهها مختلفاً. لكنها ابنتي، عرفتها من شعرها.

ريشار وكريستين سالم.

لم يبق سوى الصور.

يعودان كطفلين.

كيف يصير الانسان يتعلق بالمنامات والثياب والصور وكل شيء.

بماذا تريدني ان اقلق.

اولادي ولا اعرف عنهم شيئاً.

اولادي ولا احد يقول لي اينهم.

انا لا اتخيل ولا اقول الاشياء من رأسي، انا اعرف كيف يعيشون، ولكنني لا استطيع ان ازورهم، انا احس بكل شيء، عندما امرض اعرف ان احدهما مريض، وعندما يصيبني وجع الرأس القاتل، اعرف ان احدهما متضايق، وعندما اشعر بالارق ولا انام، اعرف انهما مشتاقان للعودة الى البيت.

نحن لا مطالب لنا.

نحن في لجنة اهالي المخطوفين، مطلبنا ان يكون هناك قليل من الشعور لدى المسؤولين، قليل من احترام الانسان، ويقولوا لنا اين اولادنا وازواجنا. الموتى يعلن موتهم والاحياء يطلق سراحهم. الاجانب اطلق سراحهم جميعاً لأن هناك دولاً تحملت مسؤولياتها، اما نحن، نحن في بلادنا، نخطف في بلادنا ولا احد في بلادنا يتحمل مسؤوليتنا".

"اليوم عيد الميلاد"، قالت اوديت.

"عندما ستنشر هذا الكلام، يكون عيد ميلاد المسيح، ماذا اقول لطفل المغارة. لا اعرف، انا نذرت اولادي له ولجميع القديسين، نذرتهما للقديس شربل والست زينب، وسيدة حريصا، وانا سأفي النذور، انتظرهما كي يعودا الى البيت واطمئن عليهما، وبعدها سأمضي من كنيسة الى كنيسة ومن مزار الى مزار، سوف اقضي حياتي وانا ادور كي افي بالنذور.

خطفا في بيروت، في شارع السادات، وانا اعيش في بيروت. وبيروت تتسع لكل هذه الاحزان وكل هذه المآسي.

اليوم عيد الميلاد.

ابنتي ولدت يوم عيد الميلاد، اليوم عيدها وانا لا احتفل بالعيد، وهي لا تحتفل.

لا اعرف لماذا لا استطيع ان احكي، عندما اكون وحدي احكي واحكي، والآن لم اعد استطيع، طارت الكلمات.

اقول في العيد انا امرأة وحيدة، لا احد يزورني، طفل المغارة لا يزورني، انا انتظر اولادي وانتظر وانتظر".

مسيرة لاهالي المخطوفين.

حول حديث ربيع جابر

تود امانة تحرير "الملحق" توضيح الالتباس الناشىء عن الحوار الذي اجراه الزميل بلال خبيز مع الروائي ربيع جابر في العدد الماضي من "الملحق".

والالتباس الاساسي نجم عن تأويل كلام جابر وروايته، مما يجعل الآراء التي وردت فيه اقرب الى الاجتهاد الشخصي لمجرى الحوار، منها الى اقوال الكاتب.